اليابان ونظمها التعليمية*

بقلم الدكتور سيدراس مسعود نواب مسعود جنك بهادر
وزير معارف حيدر آباد سابقاً ونائب رئيس جامعة عليكرة حالا

تعريب الأستاذ احسان سامي حقي
أستاذ الأدب العربي بجامعة عليكرة بالهند

[خاصة لمجلة المعرفة]

في عدد سبتمبر سنة ١٩٣٢ من هذه المجلة : نشرنا القسم الأول من هذه الدراسة الجامعة « اليابان ونظمها التعليمية » ، التي قام بها العالم الجليل الدكتور سيدراس ، وعربها « للمعرفة » الأستاذ إحسان سامي حقي .

وقد تناول القسم الأول الكلام على : تاريخ اليابان القديم والحديث، والسلالة السلطانية : وعادات اليابانيين ، وأخلاقهم ، ووطنيتهم ، وكتبهم التاريخية ، ومذهبهم الديني ، وكبار المصلحين فيهم ومن أعظمهم شأناً الدكتور (فوكوزاوا) مؤسس أول جامعة في اليابان ، هي جامعة (كي) .

ويرى القراء في هذا الجزء ، ترجمة لهذا المصلح الكبير ؛ مع نبذة عن جامعته ، والقوانين والنظم التعليمية التي استحدثت في هذا العصر بأمر المؤسس

(فوكوزاوا) مؤسس جامعة (كي)

ولد (يوكيتشي فوكوزاوا) سنة ١٨٣٥ من أبوين فقيرين ، وربي يتيماً من الصغر : فلما ترعرع ، ولم يكن له من سند أو ولي ، اضطر إلى أن يقصد مدينة (ناكاسا كي) لاكتساب الرزق ، وهناك أخذ يتعلم اللغة الهولاندية ؛ ومع أنه كان يضطر دائماً للحمل وتحصيل الرزق، فإن ذلك لم يثنه من الجد في طلب العلم ، فأتقن اللغة الهولاندية : ولما رجع سنة ١٨٥٨ إلى مدينة (يدو) ؛ جعل يدرسها ، ولم يكتف بتحصيل هذه اللغة فقط ، بل إنه لما زار مدينة (يوكوهاما) ، التي كانت مرفأ تجارياً ، وعلم أن اللغة الانكليزية من اللغات الأوربية ذات الشأن العظيم ؛ مال إلى تعلمها ؛ ورغم ما صادفه في سبيل ذلك من صعوبات : فإنه لم يتأخر جاداً عاملاً ،

* راجع عدد سبتمبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة »

ورغم أنه لم يكن لديه من الكتب إلا معجم انكليزى ؛ فانه استطاع أن يحصل على درجة عالية فى هذه اللغة أيضاً .

وفى سنة ١٨٦٠ أرسل مع من أرسل من أعضاء السفارة ، التى أرسلت إلى أمريكا ، ثم بعد ذلك بسنتين أرسل إلى أوربا ، وما ذلك إلا لمعرفته باللغات الاجنبية ؛ فبعد سياحتيه هاتين ، وتزوده بمارآى من العلوم الاجنبية ، أخرج سنة ١٨٦٦ كتاباً أبان فيه الفوائد التى يمكن لليابانيين أن يحصلوا عليها من متابعة الأوربيين فى علومهم ، مقارناً بين تلك البلاد وبين بلاده .

عاد (فوكوزاوا) بعد أن امتلأ من مناظر العالم الجميلة ، ومن المخترعات الحديثة ، إعجاباً وإكباراً . ولم يكتف بأنه رأى هو وتعلم ، بل أراد نشر العلم فى بلاده أيضاً ، فأقام مدرسة بسيطة هى أول مدرسة فتحت فى اليابان ، وترقت بسرعة عظيمة حتى أصبحت سنة ١٨٩٠ جامعة ، وتعرف اليوم بجامعة (كيوكى جيوكيوكى) . وكان (فوكوزاوا) يعرف فضل نفسه ، ويقول مفتخراً أمام تلاميذه : « إنه ما دامت هذه الجامعة فى اليابان ، فاليابانيون حقيقون أن يكونوا شعباً مهذباً » .

ولم يقتصر حب (فوكوزاوا) على العلم بهذه الجامعة فقط ، بل كان دائماً يكتب الكتب ويذيع الفنرات لهذه الغاية ، وقد كانت أقواله كلها تصادف قبولا وإعجاباً . حتى إن كتابه المسمى « الحض على العلم » يبيع منه (٣٧٦٠٠٠٠) نسخة .

وأول عبارة فى هذا الكتاب هى هذه « إن خالق السكائنات لم يخلق إنساناً سيداً لانسان ، كما أنه لم يخلق إنساناً عبداً لانسان » ؛ وبهذه الصورة والى هذه المساواة كان يدعو (فوكوزاوا) .

وكان قبل ذلك ، أى سنة ١٨٨٢ ، قد أصدر جريدة هى أول جريدة صدرت فى اليابان اسمها (جى جين) أى الوقت ، يدعو بها الشعب اليابانى إلى إصلاح حال اليابان ، ويعرض أمام الشعب الآراء الجديدة ، وتنشر أيضاً فن الخطابة فى اليابان بالرغم من أن اللغة اليابانية لا تصلح لهذا الفن ، ولكنه جعلها أهلا لذلك ؛ ففوكوزاوا إذاً هو أستاذ اليابان بلا خلاف . وهو مصلحها الأعظم ، وهو الذى يمجد اليابانيون اسمه وذكره الآن ، كما يمجدون الآلهة . وقد توفى سنة ١٩٠١ فشيع جثمانه (٢٠٠٠٠) نسمة ، وأودع مقره الأخير ؛ فهو إذاً فى اليابان كالسير سيد أحمد خان فى الهند ، أو أن السيد أحمد فى الهند كفوكوزاوا فى اليابان ، وقد نزل (فوكوزاوا) من تآليفه المختلفة (خمسين) مجلداً ، ومن عظيم نصائحه هذه :

١ — على كل إنسان فى هذا العالم أن يسعى للحصول على المراتب العالية فى المنزلة

والأخلاق ، وأن يسعى لترقيتها فى الجهة التى هى ميالة إليه ، وألا يكتفى بما حصله من العلوم ، بل يسعى دائماً إلى الازدياد .

٢ — على كل من يفهم معنى الحرية العقلية والجسمية أن يراعى حقوق نفسه ، ويسعى لأن يكون شرفه مصوناً من كل لوث ؛ ومن كان كذلك فهو الحر .

٣ — خير واسطة للوصول إلى الحياة الحرة ، أن يكتسب الانسان رزقه بعرق جبينه وكد يمينه ؛ لأن الحر يقوم بواجبات نفسه .

٤ — من لوازم الحياة ، الصحة والقوة الجسمانية ، لذلك يجب علينا أن نراعى ذلك ، وأن نجتنب من الأعمال ما كان مضراً بالصحة .

٥ — يجب على الانسان أن يبقى حياً ما دامت له الحياة ، اما الانتحار فنوع من الجنون والطيش والجبن ، وهذه الصفات هى ضد الحرية .

٦ — على الانسان أن يعتمد على نفسه ، وأن يحكم عقله فى أموره ، وألا يكون هو وعقله آلة بيد الغير .

٧ — الظن بالنساء أنهن أقل درجة من الرجل ، ومعاملتهن بتلك الخيفية منتهى الوحشية ، وعلى الرجال والنساء أن يحبوا بعضهم بعضاً ، وأن يحترم بعضهم بعضاً ، وعلى المرأة أن تسعى إلى حريتها .

٨ — الزواج هو خير عمل فى الحياة ، فعلى كل من الزوجين أن ينتخب الواحد الآخر بكل احتياط ، وعلى المرأة والرجل أن يرعى كل واحد منهما حقوق الآخر .

٩ — ربوا الأولاد على احترام الحرية وحبها .

١٠ — الجماعات بالأفراد ، فأصلحوا الأفراد .

١١ — حب الانتقام والغضب أفعال وحشية ، لا تزال جارية من عهد القاعة .

١٢ — حافظوا على الأمانات ولا تغدروا .

١٣ — عاملوا الناس بالاحسان فيعاملوكم به ، عاملوا الناس بما تحبون أن يعاملوكم به .

١٤ — الأخلاق وآداب المجلس عماد المعاشرة فأحكموا أصولها .

١٥ — أحسنوا إلى الناس وتحملوا فى سبيلهم المشاق .

١٦ — اجتنبوا ظلم الانسان والحيوان .

١٧ — تعلموا الفنون والآداب ؛ لأنها من موجبات المسرة للحياة .

١٨ — على اليابانيين نساء ورجالا ، أن يحافظوا على الحرية القومية ، مهما كلفهم ذلك من المشاق ، لأنها من أكبر فروضهم .

١٩ — يجب على الأحياء أن يسعوا إلى الترقي ، وأن يعلموا أبناءهم ما تعلموه من آبائهم بغير نقص .

٢٠ — العلم يزيد في العقلاء والأصحاء ، وينقص من الضعفاء والجهلاء ، لذلك يجب تحصيل العلوم ، لأنها أيضاً تعلم الحرية والاستقلال .

٢١ — من كان يعتقد ما نعتقد من رجل أو امرأة ، فعليه أن يسعى هذه النصائح ، وألا يعمل بها فقط ، بل أن يسعى لإشاعتها في العالم .

هذا مختصر تلك النصائح التي أوصى بها أستاذ اليابان إلى قومه ، ومن يتأمل فيها يرَ أنها عين ما يأمر به الدين الإسلامي ، رغم أنها صبت في قوالب لغات كثيرة ، إذ أنها ترجمت عن اليابانية إلى الانكليزية وإلى الأردية ، ثم إني الآن أترجمها إلى العربية ، ولا نزال نرى أن روح المعاني القرآنية متجلية فيها .

كان يتصور الناس أن لليابان ملكين : الأول ، وهو السلطان الأعظم ، وهو ما يسمى (ميكادو) ، والثاني (شوكن) ، وشوكن هذا عبارة عن وزير في الحقيقة ، ولكن هذه الوزارة وراثية ، لا تكون بتعيين ولا انتخاب ، ولذلك إن قلنا : إن في اليابان ملكين ، فقولنا صحيح ، لأن هؤلاء الوزراء كانوا في الحقيقة هم الذين يديرون المملكة ، كما كان السلاطين الأتراك في آخر العهد العباسي ، فالاسم للخليفة ، والفعل لذاك الذي يسمى سلطاناً .

فلما بلغت اليابان هذه الدرجة من الرقي ، وصبحت الدول الأوربية بأجمعها والأمريكية أيضاً تتدبدها لمصاهرتها وطلب إخائها ، ولاسيما بعد الحرب التي حصلت بين روسيا واليابان ، وانتهت بفوز اليابانيين ، واعترفت الدول جميعاً بأن اليابان هي رابع الدول العظمى في الأرض — لما تم ذلك رأى اليابانيون أن لا بد لهم من تغيير نظمهم قليلا وتحويرها ، فجعلوا يرسلون الشبان المتعلمين إلى أوربا لدرس الحالات الاجتماعية ، والأخلاقية ، والنظم السياسية ، والعمرانية وغيرها ، فلما عاد هؤلاء الشبان رأوا أن لا بد لتوحيد قوة المملكة من جعل الحكومة في يد رجل واحد ، لا كما هي الحال الآن ، إذ أن في ذلك ضعفاً في قوة المملكة ، ولاسيما أن (الميكادو) و(شوكن) كانا دائماً على نقيض في الآراء باطناً ، وإن كانا يتفقان ظاهراً ، وكانت الحكومة والسيطرة لهذا الوزير دون السلطان ، فلما عاد هؤلاء الشبان الذين لم تكن أعمارهم تزيد على الثلاثين تسلموا زمام الحكم في اليابان ، وأصبحوا حزب الميكادو ، وكان أول ما فعلوا أن قضوا على تلك السيطرة الثانية ، وجعلوا زمام الحكم بيد السلطان الأعظم ، وبطلت من ذلك الحين الوزارة الموروثة ، وسنوا قوانين جديدة منها : أنهم أولا أجازوا لسفراء الدول المثول لدى السلطان ، ثانياً استصدروا من السلطان حكماً يقضي على جميع الرعية أن يعاملوا الأجانب بالحسنى ، لأن الإساءة إليهم — عدا أنها تسوء السلطان — تحط من قدر

اليابان لدى الدول التي حالفها وصادقها ، فصادف هذا الحكم قبولا من جميع الناس حتى من الفرق التي كانت مخالفة لهذا الحلف ، على أنه لو كان صدر الحكم في زمن الوزارة (الشوكتية) ما كان أحد ليلبيه .

بعد أن تم ذلك برضاء الرعية بأجمعها ، بدأت اليابان تتعرف بالقانون الدولي ، وبدأت تتقمص رويداً رويداً لباس أوربا علماً وأدباً ، لا خلابة وجهلا ، وعما قاله الدكتور (نيتوبي) في ذلك ، يدل دلالة واضحة على أن اليابانيين كانوا قد أدركوا محاسن أوروبا كما كانوا قد علموا مساويها ، وهو :

أنه منذ اليوم الأول الذي فتحت فيه اليابان أبوابها للتجارة الأجنبية ، وجعلت ترقى في كل فرع من فروع الأسباب المعاشية ، والعلوم الغربية والسياسية ، لم تكن تقصد من ذلك الحصول على الثروة وقبول كل ما يأتيها من الغرب على العموم ، بل إن الغاية الواحدة التي حدت باليابان إلى ذلك هي ألا ترى أحداً يفوقها في هذا العالم ، كي لا ينظر إليها بنظر الاحتقار ، وما التجارة والصناعة إلا في الدرجة الثانية من هذا الأمر الأول الأهم .

وقد عقد بعد ذلك مجلس في ٦ ابريل سنة ١٨٦٨ دعا إليه السلطان أفراد العائلة المالكة ، وأركان الحكومة ، وأصحاب الاقطاعات ، والعمد ، وأخذ عليهم العهد والميثاق أن يناصروا هذه المواد الخمس ، وهي :

١ — إقامة مجالس للشورى ، ولا يقطع أمر إلا بالرأي العام .

٢ — على أفراد الرعية عموماً — سواء أكانوا من الطبقات العليا أم السفلى — أن ينفذوا ما تستحسنه وتسنه الحكومة من القوانين ، ولو بالقوة .

٣ — السماح للحكام الملكيين والعسكريين جميعا الامكان بتنفيذ مآربهم المتعلقة بوظائفهم ، كي لا يحدث عدم ذلك سلب الطمأنينة من قلوبهم .

٤ — ترك العادات القديمة ، وأن يكون بناء كل الأمور على ما تقتضيه الفطرة بصورة الاعتدال .

٥ — طلب العلم في كل قطر ومكان ، لقيام سلامة المملكة ، على أن يكون ذلك بكل همة ونشاط ، وبصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ » .

وبعد أن تليت عليهم هذه الشروط أقسموا بقولهم : إننا نساعد الحكومة أن تعمل بنص ما وضعناه من الخطط لحفظ الرعية وسعادتها ، ومن ذلك الحين دخلت اليابان في طور جديد من أطوار حياتها ، سارت منه إلى الرقي بسرعة لا مزيد عليها ، ولكن بالنظر لصعوبة المواصلات بين البلدان اليابانية ، كان من الصعب أيضاً انتقال ومريان كل جديد بالسرعة المطلوبة ، ولذلك رأى أحد أنصار هذه النهضة ضرورة مد خط حديدي بين بلدتي (يزو)

و (يوشيو) ؛ ولو كان ذلك لا يؤدى إلى المنافع المادية ، ولو بعد ألف سنة : إلا أنه يكون واسطة لتعارف أهل البلدان بعضهم بعضاً ، ووقوف كل واحد على عادات الآخر وآدابه وأطواره وكيفية معيشته ونهضته إلى غير ذلك ، فصادف رأيه هذا الاستحسان . ومد الخط الذى كان منه من الفائدة ما لم يكن فى الحسبان . ولكن مع ذلك ـ أيضاً ـ كان لا يزال أمام الحكومة عقبة أخرى تمنعها من الرقى ، وهى : أن البلاد اليابانية لم تكن مملكة واحدة ، بل كانت تقسم إلى ٢٧٦ حكومة ، يقوم بإدارة كل واحدة منها ملك مستقل عن غيره كل الاستقلال فى : ماليته ، وحكامه ، وجيوشه ، وغير ذلك ؛ وإن كان الجميع فى الظاهر يعترفون بالسلطان الأعظم ، إلا أن هذا الاعتراف لم يكن يغنى فتيلا . فقام حزب السلطان بالدعاية إلى تركيز هذه الحكومات المتعددة فى المركز الأساسى ، وجمعها تحت راية السلطان ، فصادفت دعايتهم نجاحاً كبيراً ، وانضم كل هؤلاء الملوك تحت الراية العظمى من غير قيل وقال . بل إن ما أبدوه من الإيثار فى هذه السبيل : لهو أعظم مثال حى على حب الوطن والقومية ، ولذلك فإن أقدم سلطاناً ، لما بلغته هذه الدعوة لبادا بانشراح صدر وطيبة خاطر . ومما كتبوه إلى السلطان قولهم :

« إن زمام الحكومة لم يكن قبلا إلا بيد السلطان الأعظم ، ولذلك نرى الآن أن يعود إليه الحكم فى اليابان كلها ، وأن يكون أهل اليابان كلهم رعيته ، إذ لا حياة لنا إلا به ، وإننا نعلم أن ما أساءت به حكومة (شوكن) إلى السلطان وسلب حقوقه لما نأسف له الآن ؛ ولذلك فها نحن أولاء نسلم زمام حكومتنا إلى السلطان لنعيش متحدين تحت رايته » .

لم يتأخر بعد ذلك من الملوك عن إجابة طلب السلطان ، إلا ملك من مائتين وستة وسبعين ملكاً ظلوا مترددين : وهناك قدر السلطان إيثارهم هذا كل التقدير ؛ وشكرهم عليه وأجازهم على ذلك ، بأن عين كل واحد من هؤلاء الملوك على ما كان عليه من البلاد حاكماً من قبل ؛ بعد أن أذهب عنهم تلك الفخفخة والعظمة التى كانوا يتمتعون بها ؛ وبعد أن سلبهم كل ما كانوا يتمتعون به من الحقوق ، وأصبحوا لا يزيدون على حاكم عزله ونصبه يد السلطان ؛ ثم فى سنة ١٨٧١ نسخ هذا الحكم وصدر أمر سلطانى يقضى على كل هؤلاء الملوك أن ينفصلوا عن وظائفهم ، وأن يسكنوا فى مدينة (يدو) ؛ على أن يبقوا أمراء ، ولكن بلا سلطان ؛ أى (بالاسم) ، وخصصت لهم رواتب ، تتراوح ما بين عشر ونصف من وارداتهم قبلا ؛ وأوعز إلى (السموراثيين) ، أى العسكريين ـ الذين هم من طبقة الأشراف أيضاً ؛ والذين لا يعلمون من مهنة إلا الجندية ؛ التى كانوا يرونها كحق لهم ؛ لا يستطيع أحد أن يطمع فيها ـ أوعز إليهم أن يختاروا ما يشاءونه من الأعمال ، بعد أن خصصت لهم رواتب أيضاً .

ومع ما فى هذا الحكم من القساوة ، فإن واحداً من الملوك أو الحكام لم يتأخر عن إجابة طلب الحكومة ، بل لقد لبّاه كل منهم بكل سرور ، منفذين بذلك أمر السلطان ، لأنهم كانوا يعلمون أن فى ذلك خيراً لبلادهم ؛ وهأنذا أنقل هنا ما كتبه أحد الأجانب عن الاحتفال الذى أجرى لوداع أحد هؤلاء الملوك وقد كان حاضره ، قال :

« لست أنسى قط ذلك الاجتماع الذى اجتمع فيه (السموراثيون) اليوم صباحاً ، وهم بالألبسة الرسمية للاحتفال بوداع الملك ، لأنه لم يكن منظراً وداعياً فقط ، بل كان ينطوى على ما هو أعظم من ذلك ، إذ كنت أنظر إلى وجوههم وكأنى أقرأ فيها حرفاً حرفاً عما هو على صفحات ضمائرهم ، وكأنى بالسموراثى يخاطب نفسه ويقول : السيف روح السموراثى ، والسموراثى روح اليابان ، أفيحرم هذا السيف العز والسلطان ، ويلقى كبضاعة مزجاة ، ويقوم مقامه الخبر والدواة ؟ أفهل يصبح السموراثى بعد الخول والعلول أقل من التاجر ، أو فى صفه ؟ هل يصبح الشرف أقل قيمة من الدراهم ؟ هل تذل روح اليابان ويؤتى بها إلى هذا المستوى ! ؟»

« ثم لنا أولاد ! . . ماذا نفعل ؟ أننخرط فى صفوف العمال لاكتساب الرزق ؟ وماذا نفعل إذا منعت عنا رواتبنا الموروثة ؟ أفهل نصبح نحن أولاد أولئك الفرسان الذين لا يزال دمهم يجرى فى عروقنا كباقى أفراد الشعب ، وأن نتزوج بهم دون فرق ولا امتياز ؟ إننا نفضل أن نموت جوعاً على أن يتزوج بناتنا التجار ؛ أفهل يصل بنا الحال لرغيف نسد به جوعنا ، إلى أن نقوم نسلنا ثم لننظر ما تأتينا به الأيام ! ؟ »

بينما كان كل واحد من هؤلاء السموراثيين يخاطب نفسه بمثل هذه الأقوال ، وما أشبهها ، إذا بالملك الذى كان سيصبح - بعد قليل - أسيراً فى (بيدو) ، قد حضر وماثيته تحف به ، وهو لا يزيد على الخامسة والثلاثين من العمر ، يختال فى سروال أرجوانى من استيرق ، وقميص أبيض ناصع ، وقباء كحلى ، وعلى أردانه الوسام المخصوص ، وهو متقلد خنجراً كما هى العادة ، يمشى على الأرض من غير أن يسمع له صوت ، وكان كلما تقدم بين الجموع يحيونه بخفض رءوسهم ، ووضع رءوس سيوفهم مسلولة على الأرض ؛ فبعد أن تمت هذه المراسيم وقف ، وقرأ عليهم شيئاً من تاريخ مملكته ، وما تقلب عليها من الأدوار ، ثم أسمعهم حكم السلطان القاضى برد هذه المملكة إليه ، وبين لهم الوجوه والعلل التى اقتضت ذلك ، ثم قال : « أوصيكم بأن تكونوا بعد الآن مطيعين للميكادو ، كما كنتم لى » ، ورجا لهم الخير ، وللوطن السعادة والرفاهية ، ووعدهم الخير ، بألفاظ تناسب المقام .

وبهذه الصورة والحكمة العملية ، أصبحت اليابان حكومة واحدة تحت راية واحدة .

[عليكرة : الهند] إحسان سامى حقى

(للبحث بقية)